وضع المظهر موضع المضمر
ووضع المضمر موضع المظهر
في القرآن الكريم

" دراسة بلاغية تطبيقية تحليلية "

إعداد

د/ رمضان محمد محمود حسان

مدرس البلاغة والنقد بكلية
الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي أنزل القرآن العظيم نوراً وهداية للعالمين ، وأخرس ببديع نظمه المتفيهقين ، وأرغم أنوف المتشدقين ، والصلاة والسلام على أشرف العالمين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد ...

فإن القرآن الكريم معجزة الله الخالدة أبد الآبدين ، ولا يزال درسه والوقوف على أسرار نظمه وبديع تأليفه وإحكام سبكه أمل كل متشوق ، لأن الاستشراف إلى كتاب الله ــ تعالى ــ ومحاولة استظهار سر من أسراره البلاغية مطلب نفيس وأمر جد خطير .

ولما كانت الرغبة في نيل شرف المشاركة في استظهار سر من أسرار بلاغة القرآن طلبت العون من العلي القدير ، وعمدت إلى تناول فنين من فنون البلاغة ؛ لاستظهار أسرارهما البلاغية في

القرآن الكريم وهما : وضع المظهر موضع المضمر ووضع المضمر موضع المظهر .

وإذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، وأن لكل مقام مقال ، ولكل حال كلاما يناسبها ومجيء الكلام مطابقا لمقتضى الحال هو الأصل ، وقد يخالف هذا الأصل ويأتي الكلام مخالفا لمقتضى الظاهر ، ولهذه المخالفة صور كثيرة منها : وضع المضمر موضع المظهر ، ووضع المظهر موضع المضمر ، والالتفات والأسلوب الحكيم ، والقلب والتغليب ....

وهذه المخالفة لا تكون إلا لأغراض وأسرار بلاغية يتطلبها المقام ويقتضيها الحال ، فأردت أن أقف على بعض هذه الصور في القرآن الكريم ؛ لاستظهار أسرارها البلاغية ومقاصدها الأدبية عند مخالفتها للظاهر ، فجاء هذا البحث بعنوان : " وضع المظهر موضع المضمر ووضع المضمر موضع المظهر في القرآن الكريم" دراسة بلاغية تطبيقية تحليلية .

وقد أتى هذا البحث في مقدمة ــ اشتملت على أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطته ومنهج الباحث ــ وتمهيد وفصلين وخاتمة .

أما التمهيد فقد تحدثت فيه عن صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، عرفّتها ومثّلت لها بإيجاز .

أما الفصلان فهما :

الفصل الأول : البلاغة القرآنية في وضع المظهر موضع المضمر.

الفصل الثاني : البلاغة القرآنية في وضع المضمر موضع المظهر.

ثم خاتمة البحث التي اشتملت على أهم النتائج .

ثم الفهارس الفنية .

أما عن المنهج الذي سرت عليه في معالجة جزئيات البحث فهو : التعريف بالفن البلاغي تعريفا يكشف عن مضمونه وأقسامه وأنواعه بإيجاز ، ثم تتبع شواهده في القرآن الكريم محللاً لها مبينا الأسرار البلاغية التي دعت إلى الخروج على مقتضى الظاهر ، مستعينا بما قاله المفسرون والبلاغيون من الأسرار والأغراض البلاغية للشواهد التي أنا بصدد الحديث عنها ، ثم أجتهد أحياناً في استظهار سر بلاغي لبعض الشواهد التي لم يشر المفسرون والبلاغيون للأسرار البلاغية لخروجها على مقتضى الظاهر .

وأسأل الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يجعل هذا العمل محققا لما قصدته ، وهو تجلية واستظهار بعض الأسرار البلاغية واللطائف

الأدبية في كتاب الله ــ ﷻ ــ لوضع اليد على خصائص التعبير القرآني وبلاغته .

كما أسأله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يبيض به وجهي يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، إنه خير مسئول وخير مجيب ، وصل اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

راجي عفو ربه الكريم المنان

رمضان بن محمد بن محمود بن حسان

التمهيد

ويشتمل على إشارة موجزة لصور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

إن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والأصل أن يأتي الكلام مطابقاً لمقتضى الحال الذي سيق له ، فإذا جاء الكلام على هذا جاء على أصله ، وإذا جاء مخالفا لما يقتضيه ظاهر الحال خرج عن أصله ، وذلك الخروج لا يكون إلا لأسرار بلاغية ولطائف أدبية .

وصور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر كثيرة فمنها: الالتفات والأسلوب الحكيم والتغليب والتعبير عن الماضي بلفظ المضارع والعكس ، ووضع المضمر موضع المظهر والعكس ... وإليك إشارة موجزة عن هذه الفنون وهي :

أولاً : الالتفات :

إن مادة " لفت " في اللغة تدور حول اللىّ والصرف ، يقول صاحب القاموس المحيط : (لفته يلفته : لوّاه وصرفه عن رأيه ، ومنه الالتفات والتلفت)[١].

(١) ينظر القاموس المحيط للفيروزبادي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

أما معناه عند علماء البلاغة فهو : التعبير عن معنى من المعاني بطريق من الطرق الثلاثة : (التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها)[١]

وفائدته كما ذكر الزمخشري : هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد[٢] .

وهذه فائدة عامة لكل التفات ، ثم هناك أسرار ومزايا كثيرة للالتفاتات؛ إذا يتجلى لنا في كل التفات غرض من الأغراض ومزية من المزايا بالإضافة إلى تلك الفائدة العامة التي نراها في كل التفات .

وله في الأساليب العربية ست صور هي :

١ ــ الانتقال من التكلم إلى الخطاب .

٢ ــ الانتقال من التكلم إلى الغيبة .

٣ ــ الانتقال من الخطاب إلى التكلم .

٤ ــ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة .

١٣٩٧ هـ جـ ١ ص ١٥٦ .

(١) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ط مكتبة الآداب ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م بتحقيق د/ عبد القادر حسين ص ١٠٣ والمطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني ط مكتبة الكليات الأزهرية ص ١٣١ وعروس الأفراح ضمن شروح التلخيص لبهاء الدين السبكي ط مطبعة دار السرور جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٢) ينظر القاموس المحيط للفيروزبادي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧ هـ جـ ١ ص ١٥٦ .

٥ ــ الانتقال من الغيبة إلى التكلم .

٦ ــ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) فقد التفت من التكلم في قوله : ﴿ وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ إلى الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فمقتضى الظاهر " وإليه أرجع " ، والسر في هذا الالتفات هو التلطف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾(٣)

فقد التفت من الخطاب في (جاءوك) إلى الغيبة في قوله : (الرسول) وكان القياس أن يقال : واستغفرت لهم ، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله (ﷺ) وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعة من اسمه (الرسول) من الله بمكان(٤).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ (١) فقد التفت من التكلم في : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ إلى الغيبة في : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وكان القياس أن يقال : فصل لنا ، (وفي

---

(١) سورة يس ٢٢ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمادي ط دار المصحف جـ ٤ ص ٣٨١ .
(٣) سورة النساء ٦٤ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٥٣٨ .

الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيد لترغيبه (ﷺ) في أداء ما أمر به على الوجـــه الأكمل) [٢] إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة التي تشتمل على كثير من الأسرار البلاغية لأسلوب الالتفات .

ثانياً : الأسلوب الحكيم :

وهو عند علماء البلاغة : (تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده ، تنبيهاً له على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها له على أنه الأولى بحاله أو المهم له) [٣]

فمثال تلقي المخاطب بغير ما يترقب قول القبعثري للحجاج لما قال له متوعداً بالقيد : (لأحملنك على الأدهم) (مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب) فقد أراد الحجاج بالأدهم القيد، فحمله على غير مراده وهو الفرس الذي غلب سواده على بياضه، وعطف عليه الأشهب وهو الفرس الذي غلب بياضه على سواده[٤]

---

(١) سورة الكوثر ١ ، ٢ .
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألولسي ط دار الفكر جـ ٣٠ ص ٣١٧ .
(٣) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ط مصطفى البابي الحلبي ١٤١١ هـ ١٩٩٠م الأولى ص ١٨١ والإيضاح ص ١٠٧ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٤٧٩ ، ص ٤٨١ وغير ذلك .
(٤) ينظر شروح التلخيص جـ ١ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة د/ عبد المتعال الصعيدي ط مكتبة الآداب ط السابعة عشرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م ص ١٤٦ .

ومثال تلقي السائل بغير ما يتطلب قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ (١)

فقد سألوا عن السبب فقالوا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يتزايد قليلا قليلاً حتى يمتلئ ويستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فنزل سؤالهم عن السبب في ذلك منزلة السؤال عن الغرض والفائدة منه ، فأجيبوا على مقتضى هذا التنزيل ببيان الفائدة من هذا الاختلاف ، وهو أن الأهلة بحسب ذلك الاختلاف معالم يوقت بها الناس أمورهم من المزارع والمتاجر والآجال .. ، أما السبب في هذا التنزيل والداعي إليه فهو التنبيه على أن الأولى والأليق بحالهم أن يسألوا عن الغرض والفائدة ؛ لأنهم ليسوا ممن يطلعون بسهولة على دقائق علم الهيئة ولا يتعلق لهم به غرض،فهم سألوا عن السبب فأجيبوا ببيان الغرض لكونه الأولى بحالهم(٣).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾(٢)

هذه الآية شاهد ما كان الداعي إليه التنبيه على ما هو الأهم لهم ؛ فهم قد سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف بتنزيل سؤالهم عن قدر ما ينفقون منزلة السؤال عن الصنف الذي يعطونه في الزكاة تنبيها على أن الأهم لهم السؤال عن المصرف ؛

---

(١) البقرة ١٨٩ .
(٣) ينظر مفتاح العلوم ص ١٨١ والإيضاح ص ١٠٨ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ والمطول ص١٣٦ وبغية الإيضاح ص ١٤٦ .
(٢) سورة البقرة ٢١٥ .

لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع في مواقعها وأن تكون في أحق مواضعها(١).

ثالثاً : التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي :

من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه ، وأن ما هو للوقوع كالواقع مثل قوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (٢)

فالنفخ والصعق يقعان في المستقبل ، وعبر عنهما بصيغة الماضي تنبيها على تحقق الوقوع (٣).

رابعاً : التعبير عن الماضي بلفظ المضارع :

قد يعبر عن الماضي بلفظ المضارع استحضاراً لصورته العجيبة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ (٤)

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص ١٨١ والإيضاح ص ١٠٨ والمطول ص ١٣٦ والمختصر ضمن شروح التلخيص جـ ١ ص ٤٨٣ وتفسير أبي السعود جـ ١ ص ٢١٦ وروح المعاني جـ ٢ ص ١٨٩ .
(٢) سورة الزمر ٦٨ .
(٣) ينظر الإيضاح ص ١٠٨ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .
(٤) سورة فاطر ٩ .

الأصل أن يقال : أرسل الرياح فأثارت سحاباً ، فقد عدل عن الماضي إلى المضارع استحضاراً لصورته البديعة العجيبة ، يقول الزمخشري : (فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ؛ وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك)[١].

خامساً : التعبير عن المستقبل باسم الفاعل :

من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التعبير عن المضارع بلفظ اسم الفاعل ، مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾[٢] مكان يقع ، فقد عبر باسم الفاعل (واقع) مكان (يقع) لأن وقوع الدين أي الجزاء استقبالي هذا إن أريد الجزاء الأخروي ، وإن أريد الدنيوي أمكن كون التعبير على أصله[٣].

سادساً : التعبير عن المستقبل بلفظ اسم المفعول :

من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التعبير عن المضارع بلفظ اسم المفعول ، مثل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ

---

(١) ينظر : الكشاف جـ ٣ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٢) سورة الذاريات آية ٦ .
(٣) ينظر مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي جـ ١ ص ٤٨٥ ضمن شروح التلخيص .

مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ [١] مكان (يجمع) فقد عبر بمجموع مكان يجمع لأن الجمع استقبالي، ولما كان الأصل أي الحقيقة في اسم الفاعل واسم المفعول إطلاقهما على ما تحقق فيه الحدث إما حالاً اتفاقاً أو ماضياً على المشهور ، وإطلاقهما على ما لم يتحقق فيه الحدث مجاز كان التعبير بهما عن الحدث المستقبل خلاف مقتضى الظاهر لأنهما مجاز فيه ..) [٢]

سابعا : القلب :

تدور كلمة (قلب) في اللغة حول معان كثيرة منها تحويل الشيء وصرفه عن وجهه حسياً كان أو معنوياً[٣] .

وهو عند علماء البلاغة : (أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر والآخر مكانه) [٤]

وهو قسمان :

أولاً : ما يكون موجبه تصحيح حكم لفظي كقول القطامي :

قفي قبل التفرق ياضباعاً ولا يك موقف منك الوداعا

---

(١) سورة هود ١٠٣ .
(٢) ينظر مختصر السعدي ومواهب الفتاح جـ ١ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ضمن شروح التلخيص.
(٣) ينظر لسان العرب والمعجم الوجيز ومختار الصحاح والقاموس المحيط مادة (قلب).
(٤) المطول ص ١٣٧ والمختصر جـ ١ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

فإنه لو نكر (الوداع) صح المعنى على ظاهره ، ولما عرفه وهو في موضع الخبر ونكر " موقف منك " وهو في موضع المبتدأ جعل من باب القلب .

ولولا ذلك الحكم اللفظي لم يدع القلب ؛ لأن المعنى يصح به الكلام على ظاهره كأن يكون ما هو في موضع المبتدأ نكرة وما هو في موضع الخبر معرفة .

ثانيا : ما يكون موجبه تصحيح المعنى وإجراءه على صحته مثل قولهـــم : (عرضت الناقة على الحوض) (وأدخلت القلنسوة في الرأس) والأصل : عرضت الحوض على الناقة ، وأدخلت الرأس في القلنسوة[١]

وردّه مطلقا قوم ، وقبله مطلقا قوم ومنهم السكاكي[٢].

والحق أنه إن تضمن اعتباراً لطيفا قُبِلَ وإلا ردّ[٣].

ثامنا : التغليب :

وهو : إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافقا له ، إجراء للمختلفين مجرى المتفقين ، فهو من

---

(١) مواهب الفتاح جـ ١ ص ٤٨٧ وينظر المطول ص ١٣٧ .
(٢) ينظر المفتاح ص ١١٩ .
(٣) ينظر الإيضاح ص ١٠٩ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٤٨٨ ـ ٤٩١ والمطول ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، لأن الشيء يعطي حكم غيره ويجعل موافقا له في الهيئة أو في المادة [١] .

وهو باب واسع يجري في كل فنّ ، وذو شعب كثيرة فمن ذلك : تغليب المذكر على المؤنث في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ ﴾ [٢] فعدت الأنثى من الذكور بحكم التغليب .

ومنه تغليب الأكثر على الأقل كقوله تعالى : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [٣].

أدخل شعيب في العود إلى ملتهم مع أنه لم يكن فيها قط ثم خرج منها وعاد تغليبا للأكثر ... إلى غير ذلك من الأنواع [٤].

تاسعا : وضع المضمر موضع المظهر :

من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وضع المضمر موضع المظهر (كقولك ابتداء من غير جرى ذكر لفظاً أو قرينة حال " نعم رجلا زيد ، وبئس رجلا عمرو" مكان : " نعم الرجل وبئس الرجل" على قول من لا يرى الأصل " زيد نعم رجلا، وعمرو بئس رجلا" وقولهم "هو زيد عالم وهي عمرو

---

(١) ينظر البرهان جـ ٣ ص ٣٠٢ وعلوم البلاغة للمراغي ص ١٤٥ وجواهر البلاغة ص ١٩٦ ومن بلاغة النظم القرآني ص ١٧١ .
(٢) سورة التحريم رقم ١٢ .
(٣) سورة الأعراف ٨٨ .
(٤) ينظر مفتاح العلوم ص ١٣٦ وعلوم البلاغة ص ١٤٥ وجواهر البلاغة ص ١٩٦ .

شجاع" مكان : الشأن زيد عالم والقصة عمرو شجاع ؛ ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه ؛ فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظراً لعُقبي الكلام كيف تكون ، فيتمكن المسموع بعده في ذهنه فضل تمكن) (١).

عاشراً : وضع المظهر موضع المضمر :

قد يوضع المظهر موضع المضمر لأغراض بلاغية كثيرة كزيادة تمكنه في ذهن السامع ، أو كمال العناية بتمييزه .. إلى غير ذلك من الأغراض الكثيرة التي سأوضحها أثناء البحث .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ (٢)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : " وينصرك نصراً عزيزاً " لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الجليل مع النصر لكونه خاتمة العلل أو الغايات ولإظهار كمال العناية بشأنه كما يعرب عنه إردافه بقوله : " نصراً عزيزاً "(٣)

---

(١) ينظر الإيضاح ص ١٠١ وشرح عقود الجمان ص ٢٧ .
(٢) سورة الفتح ١ ــ ٣ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٥٩٦ وروح المعاني جـ ٢٦ ص ٩١ .

إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة التي سأذكرها في ثنايا البحث مبيناً الأغراض والأسرار التي دعت إلى الخروج على مقتضى الظاهر .

وهذه هي أهم صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وهناك كثير من الصور أهملها الخطيب القزويني كل منها يصلح أن يكون من أبواب المعاني إذا اعتبر فيه نكتة لطيفة ومنها : انتقال الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر ، وهو ست صور كأقسام الالتفات .

ومنها التعبير بواحد من المفرد والمثنى والمجموع والمراد غيره ... إلى غير ذلك من صور الخروج[١] .

وهذه إشارة موجزة لصور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وإليك الأسرار والأغراض البلاغية التي تكمن في وضع المظهر موضع المضمر والعكس في القرآن الكريم .

---

(١) ينظر عروس الأفراح جـ ١ ص ٤٩١ ـ ٤٩٣ .

الفصل الأول

البلاغة القرآنية

في وضع المظهر موضع المضمر

الأصل في الكلام أنه عندما يذكر اسم ظاهر ثم يراد التعبير عنه مرة أخرى ، أو إعادته في الكلام مرة ثانية فتلك الإعادة ينبغي أن تكون بالضمير ، إلا أنه قد يخالف هذا الأصل ويعبر عن الاسم السابق عند الإعادة بالاسم الظاهر وهذا لا يكون إلا لأغراض وأسرار بلاغية .

فإن كان المظهر اسم إشارة فيكون الغرض إما كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بحكم بديع كقول الشاعر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقاً

فالمقام للإضمار لأن هذا الحكم غير محسوس واسم الإشارة موضوع للمحسوس ، فأتى باسم الإشارة لأجل الحكم البديع الذي اختص به المشار إليه وهو تركه الأوهام حائرة ، وتصييره العالم النحرير زنديقاً .

أو للتهكم بالسامع كما إذا كان فاقد البصر فيقول له : هذا الهلال بين السحاب ، أو للنداء على كمال بلادته بأنه لا يدرك غير المحسوس ، أو على كمال فطانته بأن غير المحسوس بالبصر عنده

كالمحسوس عند غيره أو للدعاء أنه كمل ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر أو غير ذلك .

وإن كان المظهر غير اسم الإشارة فالعدول إليه عن الضمير إما لزيادة تمكنه في ذهن السامع مثل قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (١) وقوله : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ ﴾ (٢) .

وإما لإدخال الروع وتربية المهابة في نفس السامع ، وإما لتقوية داعي

المأمور مثالهما قول الخلفاء : (أمير المؤمنين يأمرك بكذا) .

وإما للاستعطاف والخضوع الموجبين للشفقة مثل قول الشاعر:

إلهي عبدك العاصي أتاك مقراً بالذنوب وقد دعاك

إلى غير ذلك(٣).

كأن يكون القصد التوصل بالظاهر إلى الوصف مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ ... إلى أن قال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ (٤)

---

(١) الإخلاص ١ ، ٢ .
(٢) سورة الحاقة ١ ، ٢ .
(٣) ينظر الإيضاح ص ١٠١ ، ١٠٢ والمطول ص ١٢٨ ــ ١٣٠ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٤٥٢ ــ ٤٥٩ والمثل السائر جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ وعلوم البلاغة للمراغي ص ١٤٣ ، ١٤٤ وغير ذلك .
(٤) الأعراف ١٥٨ .

وكأن يكون المعنى على الإظهار هو المراد نحو قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ (١) لأن جملة (استطعما أهلها) صفة قرية وليست صفة (أهل) لأنه مسوق للتحدث عن القرية وجدارها لا عن أهلها ، وليست أيضا جواباً لـ إذا ؛ لأن جوابها قوله بعده : (قال لو شئت لتخذت عليه أجراً) فوضع المظهر موضع المضمر لأن الصفة جارية على غير من هي له(٢).

وصاحب الذوق السليم إذا تأمل شواهد وضع المظهر في موضع المضمر في القرآن الكريم أدرك أنها تنطوي على كثير من الحكم والأسرار التي يتطلبها المقام وتنحني أمام عظمتها جباه أساطين البيان(٣)

وإليك بعض هذه الأسرار والأغراض لوضع المظهر موضع المضمر في القرآن الكريم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٤)

كان مقتضى الظاهر أن يقال " فأنزلنا عليهم " بالإضمار لتقدم المرجع في أول الآية لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الموصول في موضع الضمير العائد إلى الموصول الأول للتعليل

---

(١) الكهف ٧٧ .
(٢) ينظر بغية الإيضاح ص ١٣٧ هامش ٣ .
(٣) دراسات في اللغة العربية وآدابها أ.د/محمود السيد شيخون ص ٦٦ .
(٤) البقرة ٥٩ .

والمبالغة في الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى[١]

أو أن الغرض هو زيادة التمكين[٢]أو تعظيماً للأمر[٣].

أو أن السر هو زيادة تقبيح أمرهم وإيذان بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم[٤] أو أن السر هو التأكيد بأن الرجز خاص بالظالمين منهم ، والاحتراس من إيهام كون الرجز كان عاما كما هو الغالب فيه[٥].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٦].

كان مقتضى الظاهر أن يقول (فلعنة الله عليهم) لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر لفظ (الكافرين) للإيذان بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم [٧].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٢٨ وروح المعاني جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٢) ينظر الإيضاح ص ١٠٢ .
(٣) ينظر تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٥٤.
(٤) ينظر الكشاف جـ ١ ص ٢٨٣ والبحر المحيط جـ ١ ص ٣٨٧ وتفسير البيضاوي جـ ١ ص ٣٠٦ وحاشية زادة جـ ١ ص ٣٠٦ وحاشية الشهاب الخفاجي جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٥) ينظر تفسير المنار جـ ١ ص ٢٦٨ وتفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٥١٦ .
(٦) البقرة ٨٩ .
(٧) ينظر الكشاف جـ ١ ص ٢٩٦ والبحر المحيط جـ ١ ص ٤٧٢ وروح المعاني جـ ١ ص ٣٢١ وتفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٥٤ وصفوة التفاسير جـ ١ ص ٧٨ .

أو لأن المظهر أبلغ وأعم وأشمل[١]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [٢]

فإن مقتضى الظاهر أن يقال : (عدو لهم) بالإضمار لتقدم ذكرهم في (من) المبهم ، واسم كان المضمر فيها لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بلفظ (الكافرين) في موضع ضميرهم ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر وإذا كانت عداوة ، الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف[٣].

كما أتى باسم الله ظاهراً ولم يأت مضمراً فلم يقل (فإنه عدو) لاحتمال أن يفهم أن الضمير عائد على اسم الشرط فينقلب المعنى أو عائد على أقرب مذكور وهو ميكال ، فأظهر الاسم لزوال اللبس، أو للتعظيم والتفخيم ؛ لأن العرب إذا فخمت شيئا كررته بالاسم الذي تقدم[٤]، أو لما يشعر به الظاهر من القدرة العظيمة على حد قول الخليفة (أمير المؤمنين يأمر بكذا حثا على الامتثال[٥].

---

(١) ينظر تفسير المنار جـ ١ ص ٣١٥
(٢) البقرة ٩٨ .
(٣) ينظر الكشاف جـ ١ ص ٣٠٠ وتفسير الفخر الرازي جـ ٢ ص ٢٧١ وتفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٦١ وروح المعاني جـ ١ ص ٣٣٤ وتفسير المنار جـ ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ والإتقان ص ٤٠١ والبحر المحيط جـ ١ ص ٤٩١ وتفسير البيضاوي جـ ١ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، وحاشية زادة جـ ١ ص ٣٦٣ .
(٤) ينظر البحر المحيط جـ ١ ص ٤٩٠ .
(٥) تفسير التحرير والتنوير جـ ١ ص ٦٢٤ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال (وهو يختص برحمته من يشاء) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن هذا المقتضى وأتى بالاسم ظاهراً للإيذان بفخامة مضمونيهما وكون كل منهما مستقلة بشأنها، فإن الإضمار في الثانية منبئ عن توقفها على الأولى(٢).

أو أتى بالاسم الظاهر (الله) في موضع الضمير (هو) لأن تخصيص الناس بالخير دون غيرهم مناسب للألوهية(٣)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (٤)

فقد وضع الاسم الجليل (الله) موضع الضمير (من دونه) لتربية المهابة والإيذان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة(٥)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ (٦)

---

(١) البقرة ١٠٥ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٧٠ .
(٣) عروس الأفراح جـ ١ ص ٤٦٠ ضمن شروح التلخيص .
(٤) البقرة ١٠٧ .
(٥) تفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٧٢ وصفوة التفاسير جـ ١ ص ٨٧ .
(٦) البقرة ١٤٤ ، ١٤٥ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ولئن أتيتهم بكل آية) لتقدم المرجع، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الموصول موضع الضمير للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقق ما يرغمهم منه من الكتاب الناطق بحقيقة ما كابروا في قبوله(١)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (٢).

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ولو يرون) لتقدم المرجع لكنه عدل عن هذا الظاهر ووضع الظاهر (الذين ظلموا) موضع الضمير لإحضار الصورة في ذهن السامع وللدلالة على أن ذلك ــ الاتخاذ ــ ظلم عظيم وأن اتصاف المتخذين به أمر معلوم مشهور حيث عبر عنه بمطلق الظلم(٣)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ..... ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤)

---

(١) تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٢٠٨ وروح المعاني جـ ٢ ص ١١ وصفوة التفاسير جـ ١ ص ١٠٥ .
(٢) البقرة ١٦٥ .
(٣) ينظر روح المعاني جـ ٢ ص ٣٥ وصفوة التفاسير جـ ١ ص ١٢ .
(٤) البقرة ١٩٦ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال (واعلموا أنه شديد العقاب) إلا أنه أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة[١]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [٢]

فقد وضع الاسم المظهر (الله) موضع المضمر (فإنه) وذلك لتربية المهابة وإدخال الروعة[٣].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٤].

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وتلك حدوده) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس ، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد[٥].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٢٤٣ وروح المعاني جـ ٢ ص ٨٤ .
(٢) البقرة ٢١١ .
(٣) تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٢٥٠ وروح المعاني جـ ٢ ص ١٠٠ وصفوة التفاسير جـ ١ ص ١٣٥ .
(٤) البقرة ٢٣٠ .
(٥) صفوة التفاسير جـ ١ ص ١٤٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ..... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال: (واعلموا أنه بما تعملون بصير)، لتقدم المرجع لكنه عدل عن هذا الظاهر وأظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة ، وفي الآية من الوعيد والتهديد ما لا يخفى(٢)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٣).

كان مقتضى الظاهر أن يقال (من يكفر بآيات الله فإنه) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن هذا الظاهر وأظهر الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس(٤)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥)

---

(١) البقرة ٢٣٣ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٢٧٠ وروح المعاني جـ ٢ ص ١٤٨ وصفوة التفاسير جـ ١ ص ١٥٣ .
(٣) آل عمران ١٩ .
(٤) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٣٤١ وروح المعاني جـ ٣ ص ١٠٧ .
(٥) آل عمران ٢٦ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال (تؤتيه) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر لفظ الملك لإزالة اللبس ، لأنه لو قال : (تؤتيه) لأوهم أنه الأول ، ففائدة الإظهار هنا هي إزالة اللبس حيث يوهم الضمير أنه غير الأول[١]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢]

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وهو على كل شيء قدير) لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب[٣].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٤]

فمقتضى الظاهر أن يقال : (وهو غفور رحيم) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الجليل للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة[٥]

---

(١) ينظر البرهان جـ ٢ ص ٤٨٧ والإتقان في علوم القرآن ص ٤٠٠ ودراسات في اللغة العربية وآدابها ص ٧٩ .
(٢) آل عمران ٢٩ .
(٣) تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٤) آل عمران ٣١ .
(٥) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٣٤٨ وروح المعاني جـ ٣ ص ١٢٩ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وبئس مثواهم) بالإضمار لتقدم المرجع، لكنه عدل عن مقتضى هذا الظاهر ووضع الاسم الظاهر (الظالمين) موضع الضمير للتغليظ والتعليل والإشعار بأنهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ..... وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (والله ذو فضل عليكم) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر (المؤمنين) للتشريف والإشعار بعلة الحكم(٤).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٥)

---

(١) آل عمران ١٥١ .
(٢) نظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٤٣ وروح المعاني جـ ٤ ص٨٨ .
(٣) آل عمران ١٥٢ .
(٤) تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٤٣٢ وروح المعاني جـ ٤ ص ٩٠ .
(٥) آل عمران ١٥٩ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فتوكل عليَّ إني أحب المتوكلين) لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الإسم الجليل لتقويه دواعي المأمور[١]، أي لما في لفظ (الله) من تقوية الداعي إلى التوكل لدلالته على ذات موصوفة بالأوصاف الكاملة من القدرة الباهرة وغيرها ، والتوكل على من هو كذلك يجب[٢]، أو لما في إظهار الاسم الجليل من إدخال للروعة والمهابة في نفس السامع وتقوية الداعي إلى الامتثال والإجابة[٣].

ومن ذلك قوله تعالـــى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ [٤].

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ومن يشرك به) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً لزيادة تقبيح الإشراك وتفظيع حال من يتصف به ، ولإظهار المهابة من الكفر[٥]

---

(١) ينظر الإيضاح صـــ ١٠٢ والإتقان صـــ ٤٠١ .
(٢) ينظر مختصر السعد جـــ ١ صـــ ٤٥٩ ومواهب الفتاح جـــ ١ صـــ ٤٢٩ ضمن شروح التلخيص والمطول صـــ ١٢٩ .
(٣) ينظر علوم البلاغة للمراغي صـــ ١٤٤ ومن بلاغة النظم القرآني صـــ ١٧٠ .
(٤) النساء ٤٨ .
(٥) ينظر تفسير أبي السعود جـــ ١ صـــ ٥٣٤ وروح المعاني جـــ ٥ صـــ ٥٤ ودراسات في اللغة العربية وآدابها صـــ ٧٧ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (إنه نعما يعظكم به إنه كان سميعا بصيراً) لتقدم المرجع في أول الآية ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً لتربية المهابة في القلوب ولإدخال الروعة على ضمير السامع بذكر الاسم المقتضى لذلك ولتأكيد الوعد والوعيد (٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٣)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وأعتدنا لهم) بالإضمار لتقدم ذكرهم في أول الآية ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع اسم (الكافرين) في موضع الضمير ذماً لهم وتذكيراً لوصفهم ، أو لجميع الكافرين وهم داخلون في زمرتهم دخولاً أوليا(٤).

أو وضع المظهر موضع المضمر تذكيراً بوصف الكفر الشنيع المؤذن بالعلية(٥) أو لقصد العموم(٦).

---

(١) النساء ٥٨ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٥٤٠ وروح المعاني جـ ٥ ص ٦٤ والإتقان ص ٤٠١ .
(٣) النساء ١٥١ .
(٤) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٦٠١ .
(٥) ينظر روح المعاني جـ ٦ ص ٥ .
(٦) ينظر تفسير المنار جـ ٦ ص ٨ والإتقان ص ٤٠١ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

فقد عدل إلى الاسم الظاهر (فلا تأس على القوم الكافرين) دون الضمير (عليهم) وهو مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر (٢)

أي لا تأسف ولا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن غائلة ذلك موصولة بهم وتبعته عائدة إليهم وفي المؤمنين غني لك عنهم .. وقيل المراد ألا تحزن على هلاكهم وعذابهم ، ووضع الظاهر موضع الضمير للتنبيه على العلة الموجبة لعدم التأسف(٣).

أو وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على تمكن الكفر منهم وأنه صار وصفاً لازما لهم(٤).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٥)

---

(١) المائدة ٦٨ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ٧٠ .
(٣) روح المعاني جـ ٦ ص ٢٠٠ وينظر البحر المحيط جـ ٣ ص ٥٤١.
(٤) ينظر تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٩٤ .
(٥) المائدة ٧٢ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال: (فقد حرم عليه الجنة وما لهم من أنصار) بالإضمار لتقدم المرجع في أول الآية ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً (الله) في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة ، كما أتى بلفظ (الظالمين) مظهراً في موضع الإضمار للتسجيل عليهم بأنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق[١] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [٢]

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ثم الذين كفروا به يعدلون) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع (الرب) موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح[٣]، وللتفخيم والتعظيم[٤]، أو لتأكيد أمر الاستبعاد[٥].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٦]

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (إنهم لا يفلحون) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٧٤ وروح المعاني جـ ٦ ص ٢٠٧ .
(٢) الأنعام آية ١ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ١١٨ .
(٤) ينظر حاشية ابن المنير على تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤ .
(٥) ينظر روح المعاني جـ ٧ ص ٨٥ .
(٦) الأنعام ٢١ .

(الظالمون) موضع الضمير تنبيها على علة الحكم أي أن عدم الفلاح الظلم[١].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [٢]

كان مقتضى الظاهر أن يقال :(يقولون) ، لكن عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الموصول (الذين كفروا) موضع الضمير ذماً لهم بما في حيز الصلة وأشعاراً بعلة الحكم [٣]، أو تسجيل الكفر عليهم[٤].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [٥]

فقد عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الظاهر (القوم الظالمين) موضع الضمير (معهم) نعياً عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون في ذلك[٦].

---

(١) ينظر البرهان جـ ٢ ص ٤٩٣ والإتقان ص ٤٠١ .
(٢) الأنعام ٢٥ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ١٣٦ وروح المعاني جـ ٧ ص ١٢٦ .
(٤) ينظر صفوة التفاسير جـ ١ ص ٣٨٧ .
(٥) الأنعام ٦٨ .
(٦) تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ١٦٤ وروح المعاني جـ ٧ ص ١٨٤

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (افتراء عليه) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (٣)

فقد عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الظاهر (الذين يصدفون) موضع الضمير(سيجزيهم) لتحقيق مناط الجزاء(٤)

كما وضع الاسم الظاهر (عن آياتنا) موضع الضمير (عنها) لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم(٥) أو ليعلم أن هذا الوعيد إنما هو على الصدف الذي هو قطع طريق الحق على المستعدين لاتباعه لأنهم بهذا كانوا أظلم الناس "(٦)

---

(١)الأنعام ١٤٠ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٢١٢ وروح المعاني جـ ٨ ص ٣٧ .
(٣) الأنعام ١٥٧ .
(٤) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٢٢٤ وروح المعاني جـ ٨ ص ٦٢ .
(٥) ينظر صفوة التفاسير جـ ١ ص ٤٣٢ .
(٦) ينظر تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٩٤ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١) .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (عليه توكلنا) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً للمبالغة في التضرع والجؤار(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(٣) كان مقتضى الظاهر أن يقول : (فآمنوا بالله وبي) بالإضمار لتقدم المرجع (إني رسول الله) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى باسم الرسول (ﷺ) مظهرا في موضع الضمير وذلك لقصد التوصل من الظاهر إلى الوصف ويتمكن من إجراء الصفات التي ذكرها للرسول (ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته) وليعلم أن الذي وجب الإيمان به والاتباع له هو من وصف بهذه الصفات ولو أتى بالضمير لم يمكن ذلك لأنه لا يوصف(٤)

---

(١) الأعراف ٨٩ .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٢٧٥ وروح المعاني جـ ٩ صـ ٤ .
(٣) الأعراف ١٥٨ .
(٤) ينظر المطول صـ ١٣٠ وعروس الأفراح جـ ١ صـ ٤٦٠ ضمن شروح التلخيص والإتقان صـ ٤٠١ وشرح عقود الجمان للسيوطي

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (١).

فقد عدل عن مقتضى الظاهر (لا نضيع أجرهم) إلى الاسم الظاهر (المصلحين) للتنبيه على أن صلاحهم علة لنجاتهم(٢)، أي للتنبيه على علة الحكم(٣)، فالصلاح مانع من تضييع أجرهم(٤) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥).

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وهو عليم حكيم) : بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً لتربية المهابة وإدخال الروعة(٦).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى

صـ ٢٨ وبغية الإيضاح صـ ١٣٧ هامش ٣ ومن بلاغة النظم القرآني صـ ١٦٩ ، ١٧٠ .

(١) الأعراف ١٧٠ .

(٢) ينظر البرهان جـ ٢ صـ ٤٩٣ .

(٣) ينظر الإتقان صـ ٤٠١ .

(٤) ينظر روح المعاني جـ ٩ صـ ٩٨٠ .

(٥) التوبة ١٥ .

(٦) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٣٩٠ وروح المعاني جـ ١٠ صـ ٦٣ .

رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١).

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ثم أنزل الله سكينته عليكم وأنزل جنوداً لم تروها) عطفا على وليتم لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير للتنويه بذكر رسول الله (ﷺ) وذكر المؤمنين ، أو لأن الأمر عظيم وهو الانتصار بعد الفرار (٢)، أو أنه آتى بالاسم المظهر (على المؤمنين) دون الضمير (عليكم) لأن الخطاب للجماعة ومنهم بقية من المنافقين وضعفاء الإيمان(٣).

(وفي الآية أيضا عدول إلى الاسم الظاهر في قوله (وذلك جزاء الكافرين) إذ الأصل : وعذب الذين كفروا وهو جزاؤهم ، فعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة إبرازاً للعذاب ، ودلالة على تميزه أكمل تمييز ، كما عدل عنه أيضا إلى الاسم الظاهر (الكافرين) تسجيلا للكفر الذي استحقوا به العذاب وزيادة في تقبيح أمر الكفرة وتحقير شأنهم(٤).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (٥).

---

(١) التوبة ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) ينظر المثل السائر جـ ٢ ص ٢٣ ودراسات في اللغة العربية وآدابها ص ٦٨ .
(٣) ينظر تفسير المنار جـ ١٠ صـ ٢٢١ .
(٤) من بلاغة النظم القرآني صـ ١٦٩ .
(٥) التوبة ٣٨ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (فما متاعها) بالإضمار لتقدم المرجع لكن عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم المظهر (الحياة الدنيا) لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة(١).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

فقد عدل عن مقتضى الظاهر (وعليه فليتوكل المؤمنون) بالإضمار لتقدم المرجع إلى الاسم الظاهر (الله) وذلك لإظهار التبرك والتلذذ به(٣).

ووضع المؤمنين موضع ضمير المتكلم (نحن) ليؤذن بأن شأن المؤمنين اختصاص التوكل بالله تعالى(٤).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥).

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (والذين يؤذونه) بالإضمار لتقدم المرجع لكن عدل عن مقتضى الظاهر وأبرزه عليه الصلاة

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٤٠٧ وروح المعاني جـ ١٠ صـ ٩٥ وصفوة التفاسير جـ ١ صـ ٥٣٨ .
(٢) التوبة ٥١ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٤١٦ وروح المعاني جـ ١٠ صـ ١١٥ .
(٤) روح المعاني جـ ١٠ صـ ١١٥ .
(٥) التوبة ٦١ .

والسلام بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه ـ ﷺ ـ موجبة لكمال السخط والغضب)[١] أو أبرز اسمه (ﷺ) ظاهراً دون الضمير تعظيماً لشأنه وجمعاً له في الآية بين الرتبتين العظيمتين من النبوة والرسالة[٢] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [٣].

كان مقتضى الظاهر أن يقال (فإن الله لا يرضى عنهم) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الظاهر (القوم الفاسقين) موضع الضمير (عنهم) للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللإيذان بشمول الحكم لمن شاركهم في ذلك[٤]، أو وضع المظهر موضع المضمر هنا لزيادة التشنيع والتقبيح[٥] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٦].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٤٢١ وروح المعاني جـ ١٠ صـ ١٢٧ .
(٢) ينظر البحر المحيط جـ ٥ صـ ٦٥ .
(٣) التوبة٩٦ .
(٤) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٤٣٩ وروح المعاني جـ ١١ صـ ٤ .
(٥) ينظر صفوة التفاسير جـ ١ صـ ٥٦٢ .
(٦) التوبة ١١٢ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وبشرهم) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر (وبشر المؤمنين) للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك[١]. أو أنه وضع المظهر موضع المظهر هنا للاعتناء بالمؤمنين وتكريمهم[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [٣] كان مقتضى الظاهر أن يقال (إنه) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأعاد لفظ إبراهيم لتشريفه وتعظيمه بما ينسب إليه[٤].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٥].

كان مقتضى الظاهر أن يقال (إنها لأمارة بالسوء) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الظاهر (النفس) لقصد العموم لأنه لو قال : (إنها) لفهم تخصيص ذلك بنفسه فأتى بالاسم الظاهر لبيان أن المراد العموم[٦].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ صـ ٤٥٢ وروح المعاني جـ ١١ صـ ٣٢ .
(٢) ينظر صفوة التفاسير جـ ١ صـ ٥٧٠ .
(٣) هود ٧٤ ، ٧٥ .
(٤) ينظر الأقصى القريب صـ ٨٢ ودراسات في اللغة العربية وآدابها صـ ٧٠ .
(٥) البقرة ١٠٥ .
(٦) ينظر البرهان جـ ٢ صـ ٤٩٣ والإتقان صـ ٤٠١ .

كما كان مقتضى الظاهر أن يقال : (إنه غفور رحيم) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه آثر الإظهار في مقام الإضمار (ربي) مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادئ المغفرة والرحمة)[١].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [٢].

وضع الاسم المظهر (النفس) موضع الضمير (هي) لزيادة التقرير وللإيذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وإن كانتا في يوم واحد[٣].

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[٤].

كان مقتضى الظاهر أن يقال (إنه كان مشهوداً) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن ذلك وأتى بالاسم مظهراً في موضع الإضمار للتعظيم والتنويه بقرآن الفجر[٥] ، أو لمزيد الاهتمام به[٦].

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [٧].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ٣ صـ ١١٧ .
(٢) النحل ١١١ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٣ صـ ٢٩٦ ، ٢٩٧ وروح المعاني جـ ١٤ صـ ٢٤١ .
(٤) الإسراء ٧٨ .
(٥) ينظر البحر المحيط جـ ٦ ص ٦٩ وتفسير روح المعاني جـ ١٥ ص ١٣٧ .
(٦) البقر ينظر تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ٣٤٦ والإتقان ص ـ ٤٠٠ .
(٧) الإسراء ١٠٥ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال (وبه نزل) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً في موضع الإضمار لزيادة التمكين ، لأن المقام مقام تقرير حكمة الإنزال لئلا يغفل عن كون نزوله لها ورداً لتوهم نزوله لغيرها بسبب كونه من غير الله تعالى كما هو مذهب الكافر ، وهذا ظاهر إن أريد بالحق في الجملتين معنى واحد كما هو ظاهر من تعريفه في الموضعين ، وأما إن أريد بالثاني خلاف الأول كأن يراد بالأول إقامة الحجة وبالثاني الأوامر والنواهي والمواعظ مثلا فالكلام على مقتضى الظاهر لأن وضع المضمر حينئذ موضع الثاني لا يصح إلا على طريق الاستخدام وهو خلاف الأصل(١).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً ﴾ (٢)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (بئس لهم بدلاً) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر

---

(١) ينظر مواهب الفتاح جـ ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ وحاشية الدسوقي جـ ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ضمن شروح التلخيص والإتقان ص ٤٠٠ .
(٢) الكهف ٥٠ ـ ٥٣ .

موضع الضمير للإيذان بكمال السخط والإشارة على أن ما فعلوه ظلم قبيح ما لا يخفى[١].

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : (وما كنت متخذهم عضداً) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع لفظ (المضلين) في موضع الضمير ذما لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً لما سبق من إنكار اتخاذهم أولياء[٢].

كما أن مقتضى الظاهر أن يقال : (ورأوا النار) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع (المجرمين) موضع الضمير تصريحا بإجرامهم وذماً لهم بذلك[٣].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [٤]

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ولا أشرك به) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بلفظ (الرب) محل الضمير لما فيه من التعظيم والهضم للخصم[٥].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ وروح المعاني جـ ١٥ ص ٢٩٥ .
(٢) تفسير روح المعاني جـ ١٥ ص ٢٩٦ وينظر البحر المحيط جـ ٦ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٣ ص ٣٨٨ ودراسات في اللغة العربية ص ٧٣ .
(٤) الكهف ٣٨ .
(٥) ينظر البرهان جـ ٢ ص ٤٩٢ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾(١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (استطعماها) أو (استطعما هم) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ، وأتى بالاسم الظاهر في موضع الضمير لأنه لو قال : (استطعماها) لم يصح ، لأنهما لم يستطعما القرية ولو قال : (استطعماهم) فكذلك ، لأن جملة (استطعما) صفة لـ (قرية) في محل خفض جارية على غير من هي له لا لـ (أهل) فلابد أن يكون فيها ضمير يعود عليها ولا يمكن إلا مع التصريح بالظاهر.

وهذه المسألة قد حررها السبكي ـ رحمه الله ـ في جواب سؤال سأله الصلاح الصفدي في ذلك حيث قال :

أسيدنا قاضي القضاة ومن إذا بدا وجهه استحيا له القمران
ومن كفه يوم الندى ويراعه على طرسه بحران يلتقيان
ومن إن دجت في المشكلات مسائل جلاها بفكر دائم اللمعان
رأيت كتاب الله أكبر معجز لأفضل من يهدي به الثقلان
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره بإيجاز ألفاظ وبسط معاني
ولكنني في الكهف أبصرت آية بها الفكر في طول الزمان عناني
وما هي إلا استطعما أهلها فقد ترى استطعماهم مثله ببيان
فما الحكمة الغراء في وضع ظاهر مكان ضمير إن ذاك لشان
فارشد على عادات فضلك حيرتـي فمالي بها عند البيان يـدان(١)

(١) الكهف ٧٧ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ومن يتبعها) أو (من يتبع خطواته) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الظاهرين موضع ضميريهما لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير(٣)

كما وضع الاسم الجليل (والله سميع عليم) موضع الضمير (وهو) لأن المقام للإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن ذلك وأتى بالإسم مظهراً للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد الاستقلال التذييلي(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥)

---

(١) ينظر عروس الأفراح جـ ١ ص ٤٦٠ ضمن شروح التلخيص والإتقان ص ٤٠٢ ودراسات في اللغة العربية ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) النور ٢١ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٧٧ ، ٧٨ وروح المعاني جـ ١٨ ص ١٢٤ ودراسات في اللغة ص٧٥
(٤) ينظر روح المعاني جـ ١٨ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) العنكبوت ١٩ ، ٢٠ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الأخرة) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر لأن الكلام معهم كان واقعا في الإعادة ، وفيها كانت تصطك الركب فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة ، فكأنه قال : ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة ، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى إبراز اسمه وأوقعه مبتدأ)[١].

فوضع المظهر موضع المضمر لتعظيم شأن النشأة الآخرة وتقرير وجودها[٢].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّه فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [٣].

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (بل هم في ضلال مبين) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الظاهر (الظالمون) موضع الضمير للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد[٤].

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٢٠٢ .
(٢) ينظر البحر المحيط جـ ٧ ص ١٤٢ وتفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٢٥٥ وروح المعاني جـ ٢٠ ص ١٤٨ وعروس الأفراح جـ ١ ص ٤٦٠ والمثل السائر جـ ٢ ص ٢٢ والإتقان ص ٤٠١ .
(٣) لقمان ١١ .
(٤) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ وروح المعاني جـ ٢١ ص ٨٢ .

أو وضع المظهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل[١].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [٢].

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (قالوا) بالإضمار كالذي قبله، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير للدلالة على صدور ذلك عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجب من أمرهم بليغ كأنه قال : (وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على الله ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يتدبروه ويتذوقوه : إن هذا إلا سحر مبين) [٣]

(أو أنه قال : (وقال الذين كفروا) بدل عن أن يقال : (قالوا للحق) لبيان أن إنكار التوحيد كان مختصا بالمشركين وأما إنكار القرآن والمعجزات فقد كان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ على وجه العموم[٤] أو لتسجيل جريمة الكفر عليهم[٥].

---

(١) ينظر صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٤٩٠ .
(٢) سورة سبأ ٤٣ .
(٣) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٣ وتفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٣٥٦ ودراسات في اللغة العربية ص ٦٨.
(٤) ينظر تفسير الفخر الرازي جـ ١٣ ص ١٣ .
(٥) ينظر صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٥٦١ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (١).

فقد أتى بالاسم مظهراً في موضع الإضمار ، لأن مقتضى الظاهر أن يقال : (وقالوا هذا ساحر كذاب) عطفا على عجبوا ، لكنه عدل عن ذلك وأتى بلفظ (الكافرون) مظهراً في موضع الإضمار (وقال الكافرون) ولم يقل (وقالوا) إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغيّ الذين قال فيهم : (أولئك هم الكافرون حقا) وهل ترى كفراً أعظم وجهلا أبلغ من أن يسموا من صدقه الله بوحيه كاذباً ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الذي لا يصح غيره، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته) (٢)

أو وضع المظهر موضع المضمر لتسجيل جريمة الكفر عليهم وإشعاراً بتعظيم ما اجترءوا عليه من القول في أمر النبي (ﷺ) ، أو لأن هذا القول كان أهم عندهم وأرسخ في نفوسهم ، فصرح باسم قائله دلالة على ما كان في أنفسهم منه(٣).

---

(١) سورة ص ١ ــ ٤ .
(٢) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٠ وتفسير الفخر جـ ١٣ ص ٢٨٣ والبحر المحيط جـ ٧ ص ٣٦٩ وتفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٤٢٨ .
(٣) ينظر المثل السائر جـ ٢ ص ٢٣ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[١]

كان مقتضى الظاهر أن يقال (نتبوأ منها) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن ذلك وأتى بالاسم ظاهراً في موضع الإضمار لقصد الاستلذاذ ، ولهذا عدل عن ذكر الأرض إلى الجنة وإن كان المراد بالأرض الجنة[٢]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنْ الْعَذَابِ ﴾ [٣]

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وقال الذين في النار لخزنتها) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الظاهر (جهنم) موضع ضميرها لأن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ، كما أن فيها أطغى الكفار وأعتاهم ، وخزنتها أعظم خزنة عند الله درجة . أو لكونهم أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى[٤]

---

(١) سورة الزمر ٧٤ .
(٢) ينظر البرهان جـ ٢ ص ٤٨٧ والإتقان ص ٤٠١ ودراسات في اللغة العربية ص ٧٨.
(٣) غافر ٤٩ .
(٤) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٣١ وتفسير الفخر جـ ١٣ ص ٥٦٤ والبحر المحيط جـ ٧ ص ٤٤٩ وتفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٤٩٣ وروح المعاني جـ ٢٤ ص ٧٥ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ولكن أكثرهم) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم (الناس) مظهراً في موضع الإضمار(أكثرهم) للإشارة على تخصيص كفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾(٣).

فقد وضع المظهر (إن الإنسان كفور) موضع المضمر (فإنه كفور) مع أن مقتضى الظاهر هو الإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن هذه المقتضى وأظهر لفظ (الناس) ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم ، وللإشعار بتصميمهم على الكفران ، والإيذان بأنهم لا يرعوون مما هم فيه(٤)

---

(١) غافر ٦١ .
(٢) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٣٤ وتفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٤٩٦ وروح المعاني جـ ٢٤ ص ٨٢ ، ٨٣
(٣) الشورى ٤٨ .
(٤) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٧٤ وتفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٥٣٣ وروح المعاني جـ ٢٥ ص ٥٣ .

أو ليبين أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة ، إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها[١].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ [٢].

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وينصرك نصراً عزيزاً) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الجليل ذكراً للتعليم ، أي بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب وبه يحصل الصبر وبه يتحقق النصر[٣]

أو أظهر الاسم الجليل مع النصر لكونه خاتمة العلل أو الغايات ولإظهار كمال العناية بشأنه كما يعرب عنه إردافه بقوله تعالى : (نصراً عزيزاً) وقال الصدر : أظهر الاسم في الصدر وهنا لأن المغفرة تتعلق بالآخرة والنصر يتعلق بالدنيا ، فكأنه أشير بإسناد المغفرة والنصر إلى صريح اسمه ــ تعالى ــ إلى أن الله ــ عز وجل ــ هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة[٤].

---

(١) ينظر تفسير الفخر جـ ١٤ ص ٥٨ .
(٢) الفتح ١ ــ ٣ .
(٣) ينظر تفسير الفخر جـ ١٤ ص ٣٠٧ . .
(٤) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٥٩٦ وروح المعاني جـ ٢٦ ص ٩١ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال (فقالوا) عطفاً على (بل عجبوا) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً (وقال الكافرون) في موضع الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وتقبيح حالهم وفعلهم(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٣)

كان مقتضى الظاهر أن يقال (هي النار) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى باسم الإشارة محل الضمير للدلالة على كمال بلادة المشرك(٤).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ ﴾ (٥)

كان مقتضى الظاهر أن يقال (وأصحاب الميمنة ما هم) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً في موضع الضمير لكونه أدخل في التفخيم والتعظيم وكذلك قال : (ما أصحاب

---

(١) ق ١ ــ ٢ .
(٢) ينظر الكشاف جـ ٤ ص ٤ وتفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٦١٧ وروح المعاني جـ ٢٦ ص ١٧٢ وتفسير القرطبي جـ ٩ ص ٦١٧٣.
(٣) الطور ١٣ ، ١٤
(٤) ينظر دراسات في اللغة العربية ص ٨٥ .
(٥) الواقعة ٨ ، ٩ .

المشأمة) دون مقتضى الظاهر (ما هم) لكونه أدخل في مقام الذم والتفظيع ، والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة ، كأنه قال : فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال[١]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴾[٢]

كان مقتضى الظاهر أن يقال (ألا إنهم هم الخاسرون) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً في موضع الضمير لقصد الإهانة والتحقير[٣].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ .. أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٤]

كان مقتضى الظاهر أن يقال (ألا إنهم هم المفلحون) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً في موضع الضمير لقصد التعظيم[٥].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ

---

(١) ينظر تفسير الفخر جـ ١٥ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ وتفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٦٧٠ وروح المعاني جـ ٢٧ ص ٣١٠ وتفسير القرطبي جـ ٩ ص ٦٣٦٩ وجـ ١٠ ص ٦٩٤٩

(٢) المجادلة ١٩ .

(٣) ينظر الإتقان ص ٤٠٠ .

(٤) المجادلة ٢٢ .

(٥) ينظر الإتقان ص ٤٠٠ .

بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً ﴾ (١).

كان مقتضى الظاهر أن يقال (ومن يتعد حدوده) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الجليل مظهراً في موضع الإضمار لتهويل أمر التعدي والإشعار بعلة الحكم في قوله : (فقد ظلم نفسه) (٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾(٣)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (الحاقة ما هي وما أدراك ما هي)؟ بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً في موضع الإضمار تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات ، على معنى أن عظم شأنها ومدى هولها وشدتها بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد(٤).

---

(١) الطلاق ١ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٧٣٣ وروح المعاني جـ ٢٨ ص ١٣٤ .
(٣) الحاقة ١ ــ ٣ .
(٤) ينظر الكشاف جـ ٤ ص ١٤٩ وتفسير الفخر جـ ١٥ ص ٦٨٣ والبحر المحيط جـ ٨ ص ٣١٥ وتفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٧٦٠ وروح المعاني جـ ٢٩ ص ٤٩ .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ﴾ (١)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وكانت كثيبا مهلا) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأعاد لفظ (الجبال) في موضع ضميره ، لأن الآية سيقت للتخويف ، والتنبيه على عظم الأمر ، فإعادة الظاهر أبلغ ، ولأنه لو لم يذكر (الجبال) لاحتمل عود الضمير إلى الأرض(٢).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (٣).

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (إنا خلقناه) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالإنسان مظهراً في موضع الضمير ، لتعظيم الأمر ، أي للتنبيه على عظم خلق الإنسان(٤)، أو لزيادة التقرير والتمكين في النفس(٥).

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ (٦)

---

(١) المزمل ١٤ .
(٢) ينظر البرهان جـ ٢ ص ٤٩٢ ودراسات في اللغة العربية ص ٧٠ .
(٣) الإنسان ١، ٢ .
(٤) ينظر البرهان حـ٢ ص٤٩١ والإتقان ص٤٠١ .
(٥) ينظر تفسير أبي السعود حـ٥ ص٧٩٩ وروح المعاني حـ٣٠ص١٩٠.
(٦) المرسلات ١٣، ١٤ .

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وما أدراك ما هو) بالإضمار لتقدم المرجع لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم مظهراً في موضع الإضمار لزيادة التفظيع والتهويل المقصودين من الكلام(١).

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾(٢).

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ويقول يا ليتني كنت ترابا) بالإضمار لتقدم المرجع وهو (المرء) لأن الكافر هو المرء ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع لفظ (الكافر) في موضع الضمير لزيادة الذم والتحقير(٣).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾(٤)

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وأخرجت أثقالها) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير ، وقيل للإيماء إلى تبديل الأرض غير الأرض ، أو لأن إخراج الأثقال حال بعض أجزائها(٥).

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود حـ٥ ص٨٠٦ وروح المعاني حـ ٢٩ ص ٢١٩ .
(٢) النبأ ٤٠ .
(٣) ينظر الكشاف حـ٤ صـ٢١١ وتفسير أبي السعود حـ٥ صـ٨٢٠ وروح المعاني حـ٣٠صـ٢٧ .
(٤) الزلزلة ١، ٢ .
(٥) ينظر تفسير أبي السعود حـ٥ صـ٨٩٤ وروح المعاني حـ٣٠ صـ ٢٦٨ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾[١].

كان مقتضى الظاهر أن يقال : (ما هي وما أدراك ما هي؟) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير تأكيداً لهولها وفظاعتها وتفخيمها لشأنها ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق[٢].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾[٣].

فإن مقتضى الظاهر أن يقال : (هو الصمد) بالإضمار لتقدم المرجع ، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار لزيادة التقرير والتمكين[٤].

أو لأن الغرض المستفاد عظمة المسند إليه وإفراده بالصمدية، وأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الألوهية ، فاقتض المقام الإظهار بدلاً عن الإضمار ، لما في الإضمار إبهام ما والمظهر أدل على التمكين لا سيما وهو علم والتمكين يناسب التعظيم والإفراد بالصمدية[٥].

---

(١) القارعة ١-٣ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود حـ٥صـ٨٩٨ وتفسير القرطبي حـ١ صـ ٧٢٥٤ .
(٣) الإخلاص ١-٢ .
(٤) ينظر الإيضاح صـ١٠٢ ومختصر السعد حـ١ صـ ٤٥٧ والمطول صـ١٢٩ والإتقان صـ٤٠٠ وعلوم البلاغة صـ١٤٤ وشرح عقود الجمان صـ٢٧ .
(٥) ينظر مواهب الفتاح حـ١ صـ٤٥٧ ضمن شروح التلخيص .

وهذه هي أهم الأغراض والأسرار البلاغية واللطائف الأدبية لأسلوب وضع المظهر موضع المضمر في القرآن الكريم ، فما الأسرار والأغراض البلاغية لوضع المضمر موضع المظهر في القرآن الكريم ؟ هذا ما سأعرض له في الفصل الثاني .

الفصل الثاني
البلاغـــة القرآنية
في وضع المضمر موضع المظهر

الأصل في ضمير الغائب أن يذكر في الكلام مرجعه الذي يرجع إليه ، وأن يكون هذا المرجع متقدماً لفظاً ورتبة ، أو في اللفظ دون الرتبة، أو في الرتبة دون اللفظ فلا يعود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة معاً [١].

ولذا عد البلاغيون قول حسان :

ولو أنَّ مجداً أخلد الدهر واحداً من النَّاس أبقى مَجْدُهُ الدَّهر مُطْعِماً

وقول زهير :

إن تلق يوماً على علاته هرماً تلق السماحة منه والندى خلقاً

غير فصيح ؛ إذ أن الضمير في (مجده) يعود على (مطعماً) وفي (علاته) يعود على (هرماً) وهما مفعولان فهما متأخران لفظاً ورتبة ، وهذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام[٢].

وقد يخرج الكلام على خلاف هذا الأصل فيذكر ضمير الغائب ثم يفسر بمتأخر عنه لغرض بلاغي ، ويكون ذلك وضعاً للضمير في موضع الاسم الظاهر .

---

(١) تنظر هذه المسألة في أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك حـــ٢ صـــ ١٢٨ وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك حـــ٢ صـــ١٦٧ -١٧٧ .
(٢) ينظر علوم البلاغة للمراغي ص ٢٩ وجواهر البلاغة للهاشمي ص ٢٠ ومن بلاغة النظم القرآني ص ١٦٥ .

والإضمار في مقام الإظهار يكون في موضعين :

الموضع الأول : باب نعم وبئس مثل : نعم رجلا محمد ، وبئس غلاماً سعيد، هذا على أن يعرب كل من : محمد وسعيد خبراً لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ لخبر محذوف ، فيكون فاعل نعم وبئس ضميراً مستتراً تقديره (هو) يعود إلى المخصوص بالمدح (محمد) والمخصوص بالذم (سعيد) وهذا خروج عن مقتضى الظاهر بوضع الضمير موضع المظهر ، إذ الأصل أن يقال : نعم محمد رجلا ، أما إذا أعرب المخصوص بالمدح والمخصوص بالذم مبتدأ والجملة قبله خبراً مقدماً فيكون الضمير عائداً على متقدم في الرتبة ولا يكون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر .

وانتصاب ما بعد (نعم وبئس) من النكرات على جهة التفسير، والداعي إليه المبالغة في المدح أو الذم من حيث إنه عند الإبهام يكون للأفئدة تطلع إلى إيضاح المبهم وشغف إلى بيانه[1].

ومثل قول زهير يمدح هرماً :

نعم امرأ هرم لمَ تعر ونائبة إلا وكان لِمُرْتَاع لها وَزَرَاْ

فالمخصوص بالمدح (هرم) عند إعرابه خبراً لمبتدأ محذوف أو مبتدأ لخبر محذوف يكون فاعل نعم في هذا التعبير (نعم امرأ هرم) ضميراً مستتراً تقديره (هو) يعود إلى المخصوص بالمدح (هرم) ، وهذا خروج عن مقتضى الظاهر بوضع الضمير موضع المظهر إذ الأصل أن يقال : نعم هرم امرأ ، أما إذا أعرب

(١) ينظر علوم البلاغة ص ١٤٣ .

المخصوص بالمدح (هرم) مبتدأ والجملة قبله خبراً مقدما فعندئذ يكون الضمير عائداً على متقدم في الرتبة ولا يكون من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر[١].

الموضع الثاني : باب ضمير الشأن والقصة[٢] مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٣]

وسر هذا الأسلوب المبالغة وتعظيم تلك القصة وتفخيمها من قبل أن الشيء إذا كان مبهما كانت النفوس ممتشوقة إلى فهمه متطلعة إلى علمه فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى يبقى منتظراً لعقبي الكلام كيف تكون فإذا وضح وفُسِّر حلَّ محلاً رفيع القدر لديها ومن ثمة لا يكون إلا في المواضع التي يقصد فيها التهويل وتفخيم أمر وتعظيمه عن طريق إبهامه ثم إيضاحه[٤].

والسر البلاغي وراء وضع المضمر موضع المظهر هو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال ، فعندما يأتي

---

(١) ينظر من بلاغة النظم القرآني ص ١٦٦ وأوضح المسالك جـ ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦وشرح الأشموني جـ ٢ ص ١٧١ .

(٢) ويسمى ضمير المجهول ، والمراد بالشأن والقصة الحديث ، وضمير الشأن هو ضمير غيبة تفسره جملة خبرية بعده مصرح بجزأيها ، فلا يكون ضمير حضور ولا يفسره مفرد ولا جملة إنشائية ، ولا جملة خبرية متقدمة عليه ، ولا جملة خبرة مؤخرة عنه وقد حذف أحد جزأيها، ويكون هذا الضمير مذكراً باعتبار الشأن ومؤنثا باعتبار القصة (ينظر شرح الأشموني جـ ٢ ص ١٧٥ والإتقان ص ٢٨٢ .

(٣) الحج ٤٦ .

(٤) ينظر الإيضاح ص ١٣٤ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٤٥١ وعلوم البلاغة للمراغي ص ١٤٣ .

الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال يتمكن المعنى في نفس السامع ويستقر في وجدانه[١]

وإليك بعض الشواهد القرآنية لوضع المضمر موضع المظهر وبيان أسرارها البلاغية .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ....﴾ [٢]

(فهو) ضمير لم يتقدم له مرجع وإنما فسره الجملة التي بعده فهو من وضع الضمير موضع الاسم الظاهر : فقوله (وهو محرم) هو ضمير شأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبراً من إخراجهم، والجملة خبر لضمير الشأن ، وقيل محرم خبر لضمير الشأن وإخراجهم مرفوع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم يفسره إخراجهم[٣] فالإبهام في هذا الضمير وُضّح بالجملة التي بعده والغاية من ذلك الإبهام استقرار المعنى الذي أتى بعده في الوجدان ورسوخه في النفس لأنه معنى مهم ، فقد تقدم في هذه الآية أربعة أشياء : قتل النفس ، والإخراج من الديار ، والتظاهر والمفاداة ، وهي محرمة واختص هذا القسم بتأكيد التحريم وإن كانت كلها محرمة لما في الإخراج من الديار من معرة الجلاء والنفي الذي لا ينقطع شره إلا بالموت[٤]

---

(١) ينظر من بلاغة النظم القرآني ص ١٦٦ .
(٢) البقرة ٨٥ .
(٣) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١ ص ١٥٠ .
(٤) ينظر البحر المحيط جـ ١ ص ٤٦٠ .

فالذي استعمل له ضمير الشأن أو ضمير القصة شيء مبهم فإذا أتى هذا الضمير المبهم تتحرك النفس إلى توضيحه وتفسيره فإذا أتى تفسيره استقر في النفس وتمكن منها ، فسرُّ الإتيان به هنا هو تمكين هذا المعنى المبهم في النفس ورسوخه في الذهن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١)

نجد قوله (إنه) ضمير لم يتقدم له مرجع وإنما فسر بالجملة التي بعده فهو من وضع المضمر موضع المظهر ، ومدار وضعه موضع المظهر ادعاء شهرته المغنية عن ذكره ، وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل إن الشأن الخطير هذا هو(٢).

فالإضمار في موضع الإظهار هنا أتى في توضيح وبيان أمر مهم وهو التنبيه على عدم فلاح الظالمين ، حتى يستقر هذا المعنى ويرسخ في القلوب والأذهان

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾(٣)

(١) الأنعام ٢١ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ١٣٣ .
(٣) الأنبياء ٩٧ .

فقوله : (هي) ضمير لم يتقدم مرجعه ، وإنما فُسِّر بالجملة التي بعده ، فهو من وضع المضمر موضع المظهر، والسر في ذلك الوضع هو تمكين المعنى الذي أتى بعد الضمير المبهم، وهو شخوص أبصار الذين كفروا لأنه أمر مهم .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(١)

فنجد قوله: (فإنها) ضمير مبهم لم يتقدم مرجعه، وإنما فُسِّر بالجملة التي بعده ، فهو من وضع المضمر موضع المظهر، والسر في هذا الوضع هو إيضاح وتمكين المعنى الذي أتى بعد الضمير حتى يستقر في الذهن، لأنه من الأمور المهمة، إذ هو حث على النظر والتدبر ، فإن أبصارهم سالمة لا عمى بها ، وإنما العمى بقلوبهم ، ومعلوم أن الأبصار قد تعمى لكنّ المنفى فيها ليس العمى الحقيقي وإنما هو ثمرة البصر ، وهو التأدية إلى الفكرة فيما يشاهد البصر(٢)

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣)

(فهي) ضمير مبهم لم يتقدم مرجعه فهو من وضع المضمر في موضع المظهر ، وهذا الضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه

---

(١) الحج ٤٦ .
(٢) ينظر البحر المحيط جـ ٦ ص ٣٥٠ .
(٣) المؤمنون ٣٧ .

من بيانه ، وأصله : إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ثم وضع هي موضع الحياة لأن الخبر يدل عليه[١].

والسر في وضع المضمر موضع المظهر هنا هو إيضاح وتفصيل وتمكين المعنى الذي أتى بعد الضمير، لأنه من المعاني المهمة التي يراد تفخيمها وتعظيمها عن طريق إبهامها ثم إيضاحها وهو إنكارهم للبعث واعتقادهم أنه لا حياة إلا الحياة الدنيا التي يحيونها .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [٢]

فالضمير في قوله : (إنه) لم يتقدم مرجعه وإنما فُسِّر بالجملة التي بعده فهو من وضع المضمر موضع المظهر والسر في هذا الوضع هو استقرار وتمكين المعنى الذي أتى بعده ،عن طريق إبهامة ثم توضيحه ، لأنه من الأمور المهمة والمعاني الجليلة ، لأن فيه التنبيه إلى خسران الكفرة وعدم فلامحهم ، فلذلك استعمل مع هذا المعنى ضمير الشأن لأن ما بعده أمر جد خطير يحتاج إلى التأكيد .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ﴾ [٣]

فقوله (إنها) ضمير لم يتقدم مرجعه وإنما فُسِّر بما بعده ، فهذا من وضع المضمر موضع المظهر، والسر في هذا الوضع هو

---

(١) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٣٢ وتفسير الفخر جـ ١١ ص ٣٧٥ .
(٢) المؤمنون ١١٧ .
(٣) سورة المعارج ١٥ .

تمكين المعنى الذي أتى بعد الضمير لأنه معنى مهم فيه ردع وزجر للكافر الذي يوُد أن يفتدي من عذاب يوم القيامة ببنيه فلا ينفع ذلك الافتداء ولن ينجو من العذاب .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ (١)

فالضمير (هو) ضمير مبهم لم يتقدم مرجعه وإنما فُسِّر بالجملة التي بعده فهو من وضع المضمر موضع المظهر ، وهو ضمير الشأن ومدار وضعه موضع الاسم المظهر مع عدم سبق ذكره هو إفادة الاهتمام بالجملة التي بعده والإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد وإليه يشير كل مشير وإليه يعود كل ضمير ، كما ينبئ عنه اسمه الذي أصله القصد ، والسر في تصدير الجملة به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير . فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقباً لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن(٢)

وبهذا يظهر لنا أن الإضمار في موضع الإظهار لا يكون إلا في الأمور المهمة والمعاني العظيمة التي يراد استقرارها وتمكينها في الذهن ، لذلك لم يكثر في القرآن استخدام ضمير الشأن والقصة لأنه إنما يجيئ في المواضع التي يراد بها تفخيم أمر أو تعظيمه عن طريق إبهامه ثم إيضاحه.

---

(١) الإخلاص ١-٢ .
(٢) ينظر تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٩١٢ وروح المعاني جـ ٣ ص ٣٤٥ والتحرير والتنوير ج٣٠ص٦١٢.

وهذه هي أهم الأسرار والأغراض البلاغية لوضع المضمر موضع المظهر في القرآن الكريم .

وبذلك تجلت لنا صورة واضحة عن الأسرار والأغراض البلاغية واللطائف الأدبية لوضع المظهر موضع المضمر ووضع المضمر موضع المظهر في ضوء القرآن الكريم ووضعنا اليد على خصائص التعبيرات القرآنية لهذين الفنين في كتاب الله ـ ﷻ ـ.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تمسك بسنته واتبع طريقته إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فهذه جولة علمية قمت بها في رحاب هذا البحث بدراسة وضع المظهر موضع المضمر والعكس وتتبعت شواهدهما في القرآن الكريم ، إذ ذكرت فيه ما يقرب من خمسة وتسعين آية من كتاب الله ــ ﷻ ــ ، مبيناً كيف خرجت على مقتضى الظاهر، مستظهراً البلاغة القرآنية في هذا الخروج ، وفي نهاية هذا المطاف توصلت إلى عدة نتائج مفيدة منها :

١ ــ أن الأصل في الكلام أن يجئ مطابقاً لمقتضى الحال التي سيق لأجلها ، ولا يخرج عن ما يقتضيه ظاهر الحال ويخالفه إلا لأسرار بلاغية ولطائف أدبية ، وأن هذه المخالفة إنما هي لظاهر الحال فقط ، لكنه يوافق ما يقتضيه المعنى ويتطلبه المقام والسياق.

٢ ــ كثرة ورود فن وضع المظهر موضع المضمر في القرآن الكريم وأن له أغراضاً وأسراراً بلاغية كثيرة ، وهذه الأغراض والأسرار تتعلق بمضمون الآية والغرض التي سيقت لأجله فبلاغة هذا الفن مرتبطة بالمقام والسياق والغرض العام .

٣ ــ قلة ورود فن وضع المضمر موضع المظهر في القرآن الكريم لأنه لا يكون إلا في الأمور المهمة والمعاني الجليلة ، والتي يراد به تفخيم أمر وتعظيمه عن طريق إبهامه ثم إيضاحه ، أو تفصيله بعد إجماله ، لأن النفس تتحرك وتتطلع وتتشوق إلى إيضاح المبهم وتفصيل المجمل ، فإذا حصل ذلك استقر في النفس وتمكن منها فضل تمكن .

٤ ــ أظفر البحث عن كثير من الأسرار والأغراض البلاغية واللطائف الأدبية التي تكون في وضع المظهر موضع المضمر في القرآن الكريم والعكس ، وهو غيض من فيض مما حواه القرآن الكريم من أسرار بلاغية ولطائف أدبية يستخرج منها كل إنسان حسب ما يفتح الله له به .

إلى غير ذلك من النتائج التي وصل إليها البحث ووفق الله الباحث إليها ، فإن كنت قد أصبت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإن كانت الأخرى فحسبي أنني اجتهدت لاستظهار سر من أسرار البلاغة القرآنية ، وادعو الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يغفر الزلات ويتجاوز عن الهفوات والعثرات ، إنه خير مسئول وخير مجيب ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

راجي عفو ربه الكريم المنان

رمضان بن محمد بن محمود بن حسان

فهرس أهم المصادر والمراجع

ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط دار مصر للطباعة

ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط مكتبة دار التراث القاهرة وط عيسى الحلبي ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م

ـ الأقصى القريب في علم البيان لأبي عبد الله محمد بن عمر التنوخي ط مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧هـ .

ـ الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير الإسكندري بهامش الكشاف ط دار الفكر .

ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري ط دار الفكر .

ـ الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني ط مكتبة الآداب ١٤١٦هـ ١٩٩٦م بتحقيق د/ عبد القادر حسين .

ـ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة د/ عبد المتعال الصعيدي ط مكتبة الآداب السابعة عشرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

ـ تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ط دار المصحف .

ـ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون .

ـ تفسير البيضاوي على حاشية زاده ط المكتبة الإسلامية .

ـ تفسير التحرير والتنوير لطاهر بن عاشور ط الدار التونسية .

ـ حاشية محي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ط المكتبة الإسلامية بتركيا .

ـ التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ط دار الغد العربي الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

ـ تفسير المنار / محمد رشيد رضا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط دار الريان للتراث .

ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع / السيد أحمد الهاشمي ط مكتبة الأصوالي .

ـ حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ط دار السرور .

ـ دراسات في اللغة العربية وآدابها أ. د/ محمود السيد شيخون ط المؤلف

ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ط مكتبة النهضة المصرية الثالثة.

ـ شرح عقود الجمان في المعاني والبيان للسيوطي ط مصطفى الحلبي ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م .

ـ صفوة التفاسير د/ محمد علي الصابوني ط دار القرآن الكريم بيروت الرابعة ١٤٠٢هـ ١٩٨١م .

ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكي (ضمن شروح التلخيص) ط دار السرور .

ـ علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع للمراغي ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

ـ القاموس المحيط للفيروزبادي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧هـ ١٩٩٧م .

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ط دار الفكر .

ـ لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بتحقيق / عبد الله علي الكبير وآخرين .

ـ المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب لضياء الدين بن الأثير ط المكتبة العصرية بيروت ١٤١١هـ ١٩٩٠م بتحقيق محمد محمد محي الدين .

ـ مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ط دار المعارف .

ـ المختصر على تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني (ضمن شروح التلخيص) ط دار السرور .

ـ المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني ط مكتبة الكليات الأزهرية .

ـ المعجم الوجيز إصدار مجمع اللغة العربية ط وزارة التربية والتعليم ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

ـ مفتاح العلوم للسكاكي ط مصطفى البابي الحلبي ١٤١١هـ ١٩٩٠م الثانية .

ـ من بلاغة النظم القرآني د/ بسيوني عبد الفتاح فيود ط مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م الأولى .

ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص) ط دار السرور .

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
ـ مقدمة	٣
ـ التمهيد	٧
ـ الفصل الأول : البلاغة القرآنية في وضع المظهر موضع المضمر	١٩
ـ الفصل الثاني : البلاغة القرآنية في وضع المضمر موضع المظهر.....	٦٠
ـ خاتمة البحث	٦٩
ـ فهرس المراجع	٧١
ـ فهرس الموضوعات	٧٥